الباب السادس

التربية الأدبية فى عهد الإصلاح الدينى

إن النهضة الأوربية التى ابتدأت فى القرن الثالث عشر ودرجت فى سبيل التقدم إلى القرن السادس عشر، أيقظت العقول وبعثت فيها روح النقد الذى شمل جميع وجوه الحياة ولا سيما الدينية منها ، فانكشف بذلك فى الكنيسة الأرثوذكسية معايب طالما سترها الجهل فى القرون المظلمة .

من هذه المعايب تلك المسالك الغريبة التى انتهجها البابوات فى جباية الأموال ، فإنهم ابتدعوا صكوكاً للغفران يبتاعها الناس لتعفيهم من عقاب الكنيسة ، فتهافت الغنى والفقير على شرائها وبذلوا فيها المال عن سخاء ، وفهم العامة وقتئذ أنها تعفى من عقاب الكنيسة وعقاب الآخرة معاً ؛ فكان ذلك مغرياً لهم بالفساد ، ومشجعاً على ارتكاب الخطايا التى يكفى فى غفرانها على ما يعتقدون ابتياع صك أو صكين بدراهم معدودات . ومما زاد الطين بِلَّةً أن المال الوفير الذى جمعته الكنيسة من هذه الطرق ومن غيرها لم ينفق جميعه فى وجوه دينية مشروعة، بل عبث به بعض البابوات فأنفقوه فى مطامعهم الشخصية ومآربهم السياسية . ومن هذه المعايب أيضاً رغبة البابوات فى السياسة الدنيوية وانصرافهم عن أمور الآخرة .

فَطِنَ الناس لمعايب الكنيسة الأرثوذكسية فمقتوا نُظُمها ، ورأوا ضرورة القيام بعمل يصلح من أمرها ويسير بها فى النهج الواضح القويم . لذلك هبَّ دعاة الإصلاح إلى العمل ، ولم يكن من قصدهم فى أول الحركة أن يهدموا النظام القديم جملة ، ويستبدلوا به النظام البروتِسْتَنْتِي الذى أنتجته الحركة فى آخر الأمر ، وإنما أرادوا أن يجعلوا إصلاحهم مؤسساً على نظام البابوية وبقائها . ولكن الكنيسة من مبدأ الحركة أنكرت عليهم عملهم ، ودبرت الحيلة لإحباط مسعاهم ، وقاومت كل جهد بذلوه فى سبيل الإصلاح ، وقد وجدت من ثروتها الطائلة وكثرة أتباعها نصيراً أى نصير ، غير أن

ذلك لم يجدِها نفعًا، بل قلل من عطف الناس عليهـا، وأثار أحقادهم على البابوية ونفوذها، وساعد على انفجار الثورات فى بقاع كثيرة من أوربا الشمالية، فنبذ كثير من الناس تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية، وانجلى الأمر عن تأسيس كنائس مستقلة تعمل بالعقائد البروتستنتية. ولقد كانت الثورات القائمة فى ممالك أوربا الشمالية يختلف بعضها عن بعض فى المقاصد والأغراض، إلاّ أن النهضة الأوربية التى أيقظت العقول وبعثت فيها روح النقد كانت عاملاً مشتركاً بينها كما كانت أكبر داع إليها جميعًا.

رجال التربية فى عهد الإصلاح الدينى

أنتجت حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر عدداً وفيراً من أئمة التربية وقادة الرأى فيها، وسر ذلك أن زعماء الحركة رأوا أن تربية النشء هى خير وسيلة للحصول على الإصلاح الذى ينشدونه، فوجهوا عنايتهم إليها واشتغلوا جميعًا بمباحثها، وفكروا فى أغراضها وأساليبها، ووضعوا ما رأوه نافعًا من مناهج التعليم ونظمه، فأصبحوا بذلك من كبار المربين الذين يهتدى بهديهم ويرجع فى التربية إلى آرائهم. ولقد اشتهر من بينهم عدد كبير، منهم إرَزْمَس الهولندى، وتُومَس مور الإنجليزى، ومَرْتِن لوُثَر وملَنْكتُون الألمانيان، وكَلْفِن الفرنسى، وزوِنْجلى السويسرى.

ويجدر بنا أن نجمل للقارىء تراجم بعضٍ من هؤلاء الرجال ليطلع على آرائهم فى التربية، ويقف على أهم نظريات الفن فى ذلك العصر.

مَرتِن لُوثَر

هو بطل المصلحين وعمدة المربين فى هذا العصر. ولد فى بلدة إيزِلْبِن من أعمال سكسونية عام ١٤٨٣، وتربى تربيـة صالحة فدخل المدارس وانتقل إلى الجامعات واغترف من علوم الدين والقانون. ولما أتم دراسته سافر إلى رومة سنة ١٥١١، فأقام بها عامًا واحداً وقف فيه على مخازى الكنيسة والمدينة، ثم عاد إلى وِتِنْبِرْغ مملوءا غيرة وحماسة، وهنا ابتدأت حركته فى الإصلاح الدينى، إلا أن مسافة الخلف لم تتسع

بينه و بين الكنيسة إلا عام ١٥١٧ ، حين أرسل البابا «ليو العاشر» أحد الرهبان إلى سكسونية بجملة من صكوك الغفران ليبيعها للناس على ما أسلفنا ، فقد عدها لوثر مخزاة من مخازى الكنيسة وأخذ يحاربها جهاراً ، فثار حقد البابا عليه وعده زائغًا عن الكنيسة وحرَمه التمتع بقوانينها ، فلم يزدد بذلك لوثر إلا اندفاعًا فى حركة الاصلاح وميلاً إلى تربية الجمهور بما يترجمه من كتب الدين وما يكتبهُ من مقالات التربية . وقد عمَد فى بادئ الأمر إلى إيقاظ عقول العامة وتحريك عواطفهم بترجمة الكتاب المقدس ونقله من اللغة الإغريقية الى اللغة الانجليزية، فتم له ذلك بلغة سهلة واضحة توافق العصر الذى وجد فيه . وكانت هذه الترجمة أكبر مساعد على تقدم التربية فى هذه الآونة ، فإنها استمالت الناس إلى القراءة و بعثت فيهم روح التفكير . ثم أتبع ذلك بمقالات ورسائل ضمنها آراءه فى نظم التربية وأساليبها .

مرتن لوثر

وليس هناك أبلغ فى إيضاح آرائه هذه من كتابه الذى بين فيه طرق الإصلاح فى المدارس المسيحية ، وَوَجهه إلى ولاة الأمور فى جميع المدارس الألمانية سنة ١٥٢٢ . ولا تقِلّ عن ذلك خطبته المشهورة التى أبان فيها وجوب إرسال الأطفال جميعًا إلى المدارس .

آراؤه فى أغراض التربية ونظمها

يذهب لوثر إلى أن الغرض من التربية هو ترقية حال الأمة والكنيسة معًا ، ولن تقوم المدرسة عنده بواجبها حتى تخرج رجالاً أتقياء يعملون على نصرة دينهم وحماية أوطانهم . ومن أجل ذلك يرى أن من واجب الحكومة أن تنفق على معاهد التربية من بيت مالها ، وأن يتمتع كل من يتربى فى هذه المعاهد بهذا الإنفاق ، لا فرق بين

غنى وفقير ، ولا بين رفيع ووضيع ، ولا بين ذكر وأنثى ، وعلى السلطة المدنية أن تسن من النظم ما يُرغم الآباء على إرسال أبنائهم إلى المدارس ولو كانوا كباراً . ولما رأى «لوثر» أن كثيراً من الأبناء ولا سيما كبار السن منهم قد يتعذر عليهم أن يدخلوا المدرسة و يواظبوا على العمل فيها ، لاشتغالهم بحرفة يكسبون منها قوتهم ، أو لرغبة آبائهم أن يبقوهم معهم لمساعدتهم فى أعمالهم احتاط لذلك وقال : على كل صبى وشاب أن يحضر المدرسة ساعة أو ساعتين من النهار ، ثم يذهب بعد ذلك الى عمله الخاص فى بيته أو مصنعه أو حانوته . و بذلك تمشى الدراسة والعمل لكسب القوت جنباً إلى جنب .

آراؤه فى مناهج الدراسة

كان « لوثر » بطل الإصلاح الدينى فى شمالى أوربا ، ولذلك كان فى مقدمة الذين يدعون إلى التعليم الدينى ، و يعدون الكتاب المقدس وأصول الدين أهم مواد الدراسة. ولما كان مع ذلك من رجال النهضة الأوربية رأى رأيهم ، فأشار بدراسة اللغات الإغريقية واللاتينية والعبرية لأنها مفاتيح الحضارة القديمة ، ولأنها تعين على فهم الكتب المقدسة ، وقد أوصى بدراسة علم المنطق وفنون البيان وتمرين النشء على النطق الصحيح الفصيح الخلاّب ، فقد كانت هذه الفنون ذات مكانة عالية فى أيامه ، إذ كانت أيام جدال ومناظرات . ومن الموضوعات التى رأى ضرورة إدخالها فى مناهج الدراسة و بالغ فى بيان منافعها ، التاريخ والغناء والموسيقى والرياضة البدنية ، أما التاريخ فقد قال عنه : « إنهُ فضلاً على نفعه فى شرح الحقائق الخلقية يعين الطلاب على فهم النظم الاجتماعية التى يرونها و يسمعون بها فى كل وقت وحين » . أما الغناء والموسيقى فانهما وسيلتان لشرح الصدور و إذهاب الحزن عن القلوب . وأما الرياضة البدنية فلأنها ذات أثر جليل فى تقويم الجسوم وتقوية العقول .

آراؤه فى طرق التدريس

كان للوثر آراء سديدة فى طرق التعليم وأساليبه ، فقد أشار بوجوب الانتفاع بما فى الأطفال من النشاط الطبعى ، ونهى عن إخضاع ما فيهم من الميل الغرزى إلى الحركة

والعمل ، وأوصى باستخدام المحسات فى التعليم والإكثار من ضرب الأمثلة ما استطاع المعلم الى ذلك سبيلاً . ومن آرائه فى تعليم اللغة أن تفوق عناية المربي بتمرين الطفل على النطق الصحيح عنايته بدراسة القواعد .

صفاته بأقدار المعلمين

قال لوثر : «لولا المعلمون ما رأينا بين ظهرانينا واعظاً ولا فقيهاً ولا كاتباً ولا طبيباً ولا حكيماً ، فهؤلاء جميعاً غرس المعلم وثمرة أعماله وجهوده . إن المعلم النشيط الذى يخلص فى العمل ، ويراقب الله فى واجبه ، ويبذل قوته ويرضى ضميره فى مهنته لا تستطاع مكافأته ، وكل مال يغدق عليه وإن كثر ضئيل فى جانب أياديه علينا ومعروفه فينا . ولقد أحسّ أفلاطون وهو وثنى الفضل الذي يُسْدَى الى الأمم على أيدى معلميها ، فأعلى مكانتهم ورأ بجهدهم أن يفى به شكرٌ أو يكفى فى المجازاة عليه مال . ولكننا — والأسف ملء قلبى — نغض منهم ونُعرض عنهم وننظر اليهم فى المجالس شزراً ، ثم ندَّعى بعد ذلك أننا من أمة لها مدنية ودين . لو أنى أكرهت على مغادرة الوعظ والإرشاد وطُلب إلىّ أن ألتمس عملاً آخر لم أجد عملاً أحب إلى نفسى من تهذيب الأحداث ، فإنى أراه أنفع شىء بعد الوعظ ، على أن الشك كثيراً ما يغلبنى على قلبى فلا أدرى أى المهنتين أشرف وأنبل .

انك يا صاح لن تستطيع أن تجد فوق الأرض فضيلة أسمى من تلك التى تراها فى رجل غريب عنك حين يجلس الى أولادك ، فيعالج نفوسهم بأنواع التأديب ، ويقوّمها بصنوف التهذيب ، متخذاً من صبره معيناً ، ومن إخلاصه نصيراً ؛ ذلك عمل قلما يبذله الآباء لأبنائهم وهم أقرب الناس اليهم ، وأشدهم حبّاً وعطفاً عليهم » .

آثار آرائه فى المدارس

وقعت آراء «لوثر» ونصائحه فى التربية موقعاً حسناً عند كثير من الناس ، ولم تلبث طويلاً حتى أدخلها أتباعه والمعجَبون به فى مدارس ألمانيا . فبعد سنة واحدة من نشر كتابه الذى وجهه الى ولاة الأمور فى المدن الألمانية ، طلب الكونت « مَنْسِفِلد» الى

المصلحين البروتستنتيين أن يؤسسوا فى « إيزلبن » مدرسة بحيث تكون فى مناهجها ونظمها وطرق تدريسها جارية على النمط الذى أشار به لوثر ، فأذعنوا للأمر وكان زعيمهم فى ذلك المربى الكبير « فيلب مِلَنْكِتون »

فيلب مِلَنْكِتون (١٤٧٩ — ١٥٦٠)

هو المربى الذى ذاع صيته فى طول البلاد الألمانية وعرضها. وهو الذى شمل إصلاحه كل معهد من معاهد التعليم فى هذه البلاد حتى لم تبق عند مماته مدينة من المدن الألمانية إلاّ وقد تم لها إصلاح مدارسها على النحو الذى رسمه وأرشد اليه ، كما لم تبق إذ ذاك مدرسة ألمانية ذات شأن إلا كان بين معلميها واحد أو أكثر من تلاميذه ؛ فلا عجب إذاً أن أكبره الألمان ولقبوه بمعلم ألمانيا ومربيها .

ولقد كانت مدينة «وِتِنْبِرْغ» المركز الذى انبعث منه نور إصلاحه مصحوباً بنور رفيقه لوثر ، فقد أقام ملنكتون فى جامعتها اثنتين وأربعين سنة يعمل ويصلح حتى مات ، وكانت هذه الجامعة أول جامعة دخلها إصلاحه ، فأخذت صبغة أدبية بروتستنتية حاكتها فيها جامعات أخرى كثيرة فى ألمانيا الشمالية ، ثم صارت هذه الجامعة فيما بعد نموذجاً لكل جامعة جديدة أسست فى هذه المملكة .

ولما استفاضت شهرة هذا البطل وسار الركبان بأخباره ، نسَل إليه الطلبة من كل حدَب ، وأقبلوا آلافاً مؤلفة إلى جامعة «وتنبرغ» حتى إذا اقتبسوا من نوره رجعوا حاملين آراءه ومبادئه فنشروها فى كل مكان أقاموا به وعلموا فيه ؛ وكان أمراء القطائع الألمانية إذا أراد أحدهم أستاذاً لجامعته أرسل إلى هذا المصلح العظيم فاختار له واحداً من تلاميذه ، وكذلك كان الحال إذا أراد أولو الأمر فى مدينة من المدن رئيساً يدير شئون مدارسها ويسوس أمورها . ومما لاخلاف فيه أن العدد الأكبر من مشهورى المربين فى هذا العصر كنِنْدَر ، وتُرُنْدِنْدُرْف كانوا من تلاميذه والآخذين عنه . ولم يكن الفضل فى صلته بمدارس ألمانيا جميعها راجعاً إلى تلاميذه فحسب ، فقد كان يكثر من زيارتها ومراسلة القائمين بشئونها فى كل ما يراد إدخاله فيها من وجوه الإصلاح ؛

هذا إلى كتبه النافعة فى فروع الدراسة المختلفة ، فقد ألف فى السادسة عشرة من عمره كتاباً فى قواعد اللغة الإغريقية صار فيما بعد كتاباً مدرسياً شائعاً فى كل المدارس الألمانية، ثم أتبع ذلك بتأليف كتاب آخر فى قواعد اللغة اللاتينية فكان له من الشهرة ما كان لسابقه ، وله فى المنطق والبيان والتاريخ والأخلاق والطبيعة مؤلفات نافعة مستعملة فى المدارس الابتدائية . أما مؤلفاته الدينية فقد كانت معروفة بين طلاب الجامعات البروتستنتية والمدارس العالية .

ولما طلب إليه أمير سكسونية أن يضع نظاماً خاصًّا للتعليم فى قطيعته ، وضع نظاماً يقضى بتأسيس نوع حديث من المدارس سماها المدارس اللاتينية ، وطلب ألا تخلو قرية أو مدينة فى قطيعة سكسونية من مدرسة تسير على هذا النظام ، وقد جعل الدراسة فيها ضيقة الدائرة قليلة المواد ، فقد رأى ألا يدرس فيها سوى اللغة اللاتينية والدين ، وحذَّر المربين فيها ألا يثقلوا كواهل الأطفال بالإكثار من فروع الدراسة كما كانت الحال قديمًا ، وأوجب قسمة التلاميذ فى هذه المدارس إلى فرق ثلاث يختلف فيها التعليم على حسب اختلافهم فى القوة والعلم . ولما ارتقت هذه المدارس فيما بعد بارتقاء مناهجها صارت معاهد للدراسة العالية فى الآداب والفنون .

جُن كَلْفِن (١٥٠٩ — ١٥٦٤)

ولد « كَلْفِن » فى بلدة « نوايون » من أعمال « بيكارْديه » بفرنسا ، وتربى تربية حسنة ودرس القانون والدين دراسة متقنة ، ولم يقنع كغيره بالطعن على العقائد الكاثوليكية ، بل عزز آراءه بوضع كتاب فى قواعد الدين المسيحى ، وبيّن فيه منهجه لإصلاح الدين . ولما رأى حقد ملك فرنسا إذ ذاك على جماعة البروتستنتيين نزح إلى سويسرا حيث ساعدته الأحوال السياسية فى هذه البلاد على نشر مبادئه وآرائه . وقد أنفق أكثر أيامه فى المناقشات الدينية، ولم تتجه عنايته إلى التربية والبحث فى مسائلها الاّ فى السنوات الأخيرة من حياته ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يقوم بأعمال كثيرة فيها ، فقد أسس مدارسه المشهورة المنسوبة إليه فى « جنيف » وغيرها من أمهات المدن ، وهى

لا تختلف كثيراً عن المدارس اللاتينية التى سبق لنا الكلام فيها .

كلفن

ولما اتسعت دائرة أعماله فى التربيــة دعا إليه معلمه «كُرْدِرْيَس» الفرنسى ورَغبه فى المجىء إلى سويسرا ليشتغل معه بالتعليم فى المدارس التى أصلحها، وليساعده فى إتمام تنظيمها وترتيبها ، فنجح فى استمالته . جاء اليه ذلك المربى العظيم وكان من أجلِّ أعماله أن ألف كتباً أربعــة فى المحاورات قصد من وضعها أن يتعلم التلاميذ اللغة اللاتينية تعلّماً يقدرهم على الكلام بها بسرعة وسهولة ، وأن يكون ذلك من طريق المحادثة والمحاورة فى موضوعات عصرية شائقة .

هذا وقد أخذ التعليم فى المدارس الكلفنية صبغة دينية أدبية . وقد كانت إحدى مدارسه فى «جنيف» مقسمة إلى فرق سبع يعلم فيها الدين والآداب ، وكان تلاميذها يبتدئون بتعلّم الدين واللغة اللاتينية ، حتى إذا وصلوا إلى السنة الرابعة ابتدءوا دراسة اللغة الإغريقية . وفى فرقها العالية كانوا يدرسون المنطق وفنون البيان . وقد انتشر هذا النوع من المدارس بسرعة فى كثير من مدن سويسرا وفرنسا وانجلترا بين الطوائف البروتستنتية .

زِونْجِلى (١٤٨٤ — ١٥٣٢)

كان زعيم الإصلاح فى سويسرا ، وكانت إحدى غاياته فى الإصلاح إنهاض التربية وترقيتها . أسس جملة من معاهد التعليم الأدبى فى سويسرا ، وكان له الفضل فى إدخال المدارس الابتدائية فى هذه المملكة ، وقد نشر مقالاً فى التربية الدينية بيّن فيه الطريق القويم فى تعليم الأحداث وتربيتهم تربية مسيحية ، وضمنه منهج الدراسة الذى ارتضاه ، وهو لا يختلف كثيراً عن منهج «لوثر» إلاَّ فى أنهُ أهمل التاريخ وذكر فى مكانه الحساب والمساحة ، وربما أتى هذا التغيير من ميله المعروف إلى تفضيل الفنون العملية على الفنون النظرية .

الإصلاح الكاثوليكى

جماعة اليسوعيين

أجملنا فيما سبق لنا ما قام به المصلحون البروتستنتيون فى سبيل إنهاض التربية وترقية شئونها ، ويجدر بنا الآن أن ننظر إلى الوراء قليلاً لنرى مجهود الكنيسة الأرثوذكسية فى هذا السبيل إبَّان الثورة البروتستنتية .

فى حياة « لوثر » و بعد مماته كان للكنيسة الأرثوذكسية أنصار يعملون على توطيد أركانها و إصلاح ما فسد من أمورها ، مع إبقاء نفوذ البابا و سلطانه والمحافظة على الرابطة التى تربطهم به . وقد رأى الكاثوليكيون عامة أن من واجبهم فوق ذلك أن يقمعوا زيغ البروتستنتيين وأن يردوا إلى كنيستهم من خرج عنها من رجال ونساء ، فقامت من أجل ذلك حروب دينية بين الفريقين أظهر فيها كل فريق منتهى أعمال القسوة والفظاعة من قتل وتعذيب وتمثيل ، غير أن هذه الحروب لم تُجْد الكاثوليكيين كثيراً ، فعَمَدوا إلى وسائل أخرى كان أكثرها نفعاً تكوين تلك الجماعة التى سموها «جماعة اليسوعيين » ، فقد عززت مواقفهم وأيدتهم أى تأييد .

ألف هذه الجماعة زعيمها «لويولا[1] » فى سنة ١٥٣٤ ، وذلك أنه استمال إليه ستة من الطلبة وعاهدهم على أن يهبوا نفوسهم جميعاً لهداية الوثنيين ومؤازرة البابا وتأييد سلطانه ونفوذه ، إلاَّ أن هذه الجماعة لم تصادف من الناس إقبالاً فى بدء أمرها ، ولم يأبه لها أحد فى سنواتها الأولى ، ولكن لم تمض السنة السَّادسة من حياتها حتى أحس الناس جليل نفعها ، فاعترف بها البابا ، وأسرع الناس إلى الانتظام فى صفوفها وأخذوا جميعاً يعملون على تحقيق أغراضها ، فعوّلوا أولاً على جهود المرسلين المبشرين فى نشر الدين المسيحى الكاثوليكى فى أرجاء المعمور ، ثم عمَدوا بعد ذلك إلى تأسيس المدارس والمعاهد العلمية ، واتخاذها وسائل لِتربية التلاميذ على الطاعة والإخلاص للبابا .

---

(١) هو إجنات لويولا أحد الفرسان الاسبانيين ، ولد سنة ١٤٩١ وتوفى سنة ١٥٥٦ ، وقد جرح فى إحدى الوقائع ، فصرف مدة مرضه فى مطالعة الكتب الدينية ، فتمكن حب الدين من قلبه ، وعزم على أن يهب البقية الباقية من حياته لخدمة الدين .

ولم يكن من أغراض هذه المدارس أن تقتصر على تربية من يرتبط بهذه الجماعة فحسب، أو أن تجعل أعمالها مقصورة على التربية الدينية ، وإنما كانت ترمى إلى تربية الشبان تربيـة عالية من غير تمييز بين فريق وفريق ، كما كانت تقصد إلى تربية عامة من جميع وجوهها . وقد أكسبهم ذلك نجاحاً عظيماً فأقبل ألوف الطلبة إلى مدارسهم ، ونزح إليهم كثير من طلبة المدارس البروتستنتية .

لم تُعن جماعة اليسوعيين بالتربية الابتدائية كثيراً ولا بتربية الطبقة الدنيا من الناس ، ومن عرف أغراضها لا يعجب لذلك ، فقد كانت ترمى الى تكوين أبطال وزعماء يقودون الناس إلى نُصرة دينهم، ولذلك وجهت كل عنايتها إلى التربية العالية. وقد أسست نوعين من المدارس عرف أحدهما بالمعاهد الراقية ، والآخر بالمعاهد غير الراقية، فالأولى تُشبه الجامعات ومدارس العلوم الدينية المعروفة عنـد البروتستنتيين ، والثانية أشبه شيء بالمدارس الثانوية أو بمدارس الآداب والفنون . وقد كان من مبادىء هذه الجماعة ألا يشرعوا فى إنشاء مدرسة حتى تجمع لها الإعانات الكافية والهبات الجزيلة التى تضمن حياتها وتساعد على نجاح التعليم فيها . وقد كثر التعليم فيها بالمجّان ، فكان ذلك من أسباب فوقها على ما يماثلها من المدارس البروتستنتية وكذلك المدارس البلدية .

انتشار مدارس اليسوعيين

فى الربع الثانى من القرن السابع عشر كثرت مدارس اليسوعيين حتى بلغ عددها ٣٧٢ مدرسة . وفى أول القرن الثامن عشر زاد العدد إلى ٦١٢ مدرسة ، وبعد منتصف هذا القرن بقليل وصل العدد إلى ٧٢٨ مدرسة .

أما عدد الطلبة فى هذه المدارس فيدل دلالة واضحة على ما صادفته من النجاح ، ففى المدارس الكبيرة كان العدد يزيد على ألفى طالب فى المدرسة الواحدة . وكان عدد الطلبة فى المدارس التابعة لدائرة باريس يُربى على ١٣ ألفاً ، وفى المدارس الوطنية فى رومة يبلغ ألفين . وفى وقت انطفاء جذوة هذه الجماعة بلغ عدد تلاميذها جميعاً ٢٢ ألفاً وهب الفريق الأكبر منهم نفوسهم لأعمال التربية والتعليم .

نظام المدارس اليسوعية

إن قوة النظام فى مدارس اليسوعيين وإحكام إدارتها كان من أسباب نجاحها وبلوغها تلك الغاية التى وصلت إليها . كانت إدارة هذه الجماعة فى كل أدوار حياتها أشبه شيء بالإدارة العسكرية ، ولا عجب : فقد كان زعيمها ومؤسسها « لويولا » فى بدء حياته جنديًّا ، وكان يعتقد كغيره من الجنود أن لا نجاح لنظام من النُّظُم مالم تكن الطاعة العمياء للرئيس إحدى دعائمه . ولذلك جرى نظام هذه الجماعة من بدء تكوينها على أن يكون لها قائد عام يسيطر على جميع شئونها جميعَ حياته ، وله النفوذ المطلق والسيطرة العامة والكلمة التى لا تراجع . ولما اتسعت أعمال هذه الجماعة وسرى نظامها إلى كثير من البلاد الأوربية ، قسمت هذه البلاد إلى أقاليم يدير شئون الجماعة فى كل منها مدير يختاره القائد العام ليشغل منصبه ثلاث سنوات لا غير . ويعمل تحت إشراف هؤلاء المديرين رؤساء المدارس ، فقد كان كل رئيس خاضعاً لمدير إقليمه ومؤاخذاً أمامه . واختيار رؤساء المدارس من حقوق القائد العام وحده فهو الذى ينتخبهم لمدة ثلاث سنوات أيضًا . ويأتى بعد هؤلاء الرؤساء مراقبو التعليم فى المدارس ، والحق فى اختيارهم لمدير الإقليم . وعليهم أن يلاحظوا أعمال المدرسين ويزوروهم فى حجر التدريس مرة على الأقل فى كل خمسة عشر يومًا ، وعلى رئيس المدرسة أيضًا أن يزور حجر الدراسة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . والغرض من هذه الزيارات الكثيرة إلزام المدرسين اتباعَ طرق التدريس ومناهجه التى رُسِمَتْ لهم ، ومنعهم من السير على حسب آرائهم وأهوائهم حتى لا تخطىء الجماعة الغاية التى قصدت إليها من التعليم .

وقد أوجب قانون اليسوعيين أن تكون العقوبات فى مدارسهم قليلة جداً ، وطلبَ إلى معلميها أن يغضوا عن كثير من هفوات الطلبة ما لم يروا ذلك الأغضاء وبيل العاقبة ذميم الأثر . أما الذنوب العظيمة فكان جزاؤها العقاب البدنى . فإذا تمادى المذنب بعد ذلك ولم تفلح فيه هذه العقوبة ، أغلقت فى وجهه أبواب هذه المدارس وحُرِّم عليه دخولها بَتَّةً . وقد يخطر ببال القارئ أن مبدأ الإقلال من العقوبات لا بد

أن يكون قد أدى إلى انحطاط فى سلوك التلاميذ أو إهمال فى دروسهم ، ولكننا نقول: إن جماعة اليسوعيين قد وُفِّقت إلى وضع نظام بديع للمكافآت ، واهتدت به إلى بث روح التنافس بين التلاميذ على أسلوب لم يعرف من قبل ، فضمن لها ذلك كل ما أمَّله رجال التربية من وراء العقاب . ولنشرح للقارئ ما يستبين به فوق اليسوعيين على غيرهم فى نظام المكافآت .

إن المكافآت فى المدارس الإنجليزية الحاضرة مثلاً لا تأثير لها فى إيقاظ قوى التلاميذ وبث روح التنافس إلاَّ بين الثلاثة أو الأربعة الأُوَل من كل فرقة ، أما الباقون فإنهم لضعفهم ويأسهم من اللحاق بهؤلاء يرون من العبث أن يسابقوهم إلى غاية أو يجروا معهم فى مضمار ، ولكنك إذا تأملت نظام المكافآت عند اليسوعيين أعجبك إحكامه ، فإنهم يقسمون الفرقة الواحدة من التلاميذ إلى طوائف صغيرة ، ويراعون أن يكون أفراد كل طائفة متقاربين فى الاستعداد والتحصيل ، ويعينون مكافأة لكل طائفة ، ثم يرسلون الجميع إلى ميادين السباق كخيل الحلْبة ، كل طائفة فى ميدانها ؛ وهنا يجد الضعفاء والأقوياء مجالاً للمنافسات ، ويطمعون جميعاً فى نيل المكافآت .

اعداد المعلمين

كانت عناية هذه الجماعة بانتقاء معلمى مدارسها وإعدادهم لمهنة التدريس سبباً آخر من أسباب نجاحها فى التعليم . فقد كان لها طائفتان مختلفتان من المدرسين ، أولاهما تختار من بين الطلبة الذين أتموا دراستهم فى المدارس الراقية وغير الراقية على حسب مناهج مقيدة محدودة ، وكانت هذه الطائفة تزاول مهنة التعليم فى مدارس هذه الجماعة قبل أن تنتظم فى سلك الحياة العملية ، ويسمى أفرادها بالطلبة المعلمين . أما الطائفة الثانية فهم الأساتذة الدائمون الذين يديرون حركة التعليم ويرسمون خطة التدريس لأولئك الصغار من المعلمين ، وكانوا يختارون من الذين أتموا دراسة المناهج المطولة الوافية المعروفة فى الجامعات ، والذين أعدتهم هذه الجماعة لمهنة التدريس إعداداً صحيحاً . وقد كان من الضرورى أن يراعى فى اختيار هؤلاء الأساتذة قوة ميلهم وحسن استعدادهم لهذه المهنة العالية . ولما كان اختيار طلبة المدارس اليسوعية مبنياً على كرم

الأصول ورقى المدارك ، كان المعلمون اليسوعيون بانتقائهم من بين هؤلاء الطلبة خياراً من خيار . ولذلك تهيأت لهذه المدارس طائفة من الأساتذة والمعلمين قلما داناهم فى الفضل والعلم أساتذة المدارس المعاصرة .

مواد الدراسة

إن مواد الدراسة فى مدارس اليسوعيين تشبه مواد الدراسة عند أنصار الآداب أيام النهضة الأوربية . وعلى هذا لا نخطئ إذا قلنا إن مدارسهم لم تختلف عن المدارس البروتستنتية المعاصرة لها فى موضوعات الدراسة أو فى الأغراض التى أريد الوصول

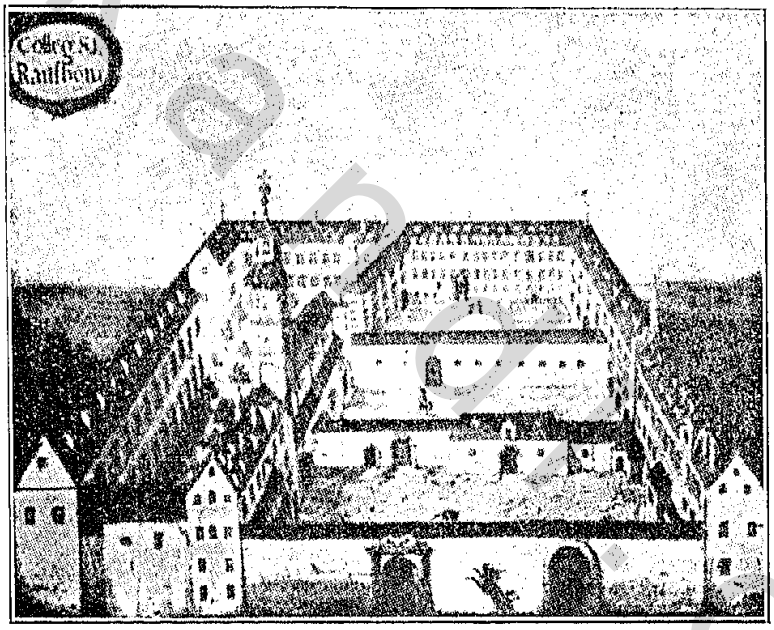

مدرسة رِيجِنْزِبِرْج إحدى مدارس اليسوعيين (١٦٠٠)

إليها من وراء هذه الموضوعات ؛ فقد كانت عناية اليسوعيين موجهة إلى دراسة قواعد اللغة اللاتينية وآدابها ، ومطالعة ما خطه فرسان البيان فى هذه اللغة ، ولا سيما شيشيرون . وأُفيد . وترِنس . كذلك اللغة الإغريقية ، فقد كان لدراستها شأن فى مدارسهم وإن لم تنل من الحظوة لديهم كل ما نالته أختها اللاتينية . ومن المقطوع بهِ أن عنايتهم بالرياضة ومبادئ العلوم الفلسفية كانت تفوق عناية غيرهم بها فى المدارس المعاصرة . وقد كانوا يدرسون فى مدارسهم العالية كل ما هو مألوف فى مناهج الجامعات من الرياضة والعلوم

الفلسفية والقانون والطب وغيرها . أما المدارس الثانوية أو المعاهد غير الراقية فقد كانت مقسمة الى ست فرق (وبعد الى ثمان) خُصّت الأربعُ الأولى منها بدراسة قواعد اللغة اللاتينية ، والخامسة بالآداب ، والسادسة بفنون الفصاحة والبيان .

طرق التدريس

امتازت مدارس اليسوعيين بأمور كثيرة ، أهمها طرقها السديدة فى التعليم ، فإنها اهتدت فيه إلى أساليب خاصة كان لها أثر واضح فى النهوض بالتربية إلى مكان رفيع ، فمن ذلك اعتمادها على التعليم الشفوى فى جميع الفرق المدرسية لا من حاجة الى كتب الدراسة أو نقص فيها ، فقد كان لأساتذتها عدد غير يسير من المؤلفات النافعة التى لاتزال موضع الإعجاب فى كثير من المدارس إلى الآن . ومن ذلك حرصهم على إتقان العمل وتجويده بمراجعة الدروس الماضية واستعادتها من التلاميذ ، فقد كان المعلم يبتدئ درسه كل يوم بمراجعة الدرس القديم ، ويختتم كل أسبوع بمراجعة كل درس ألقى فيه ، كما كان يختتم كل سنة بمراجعة مواد الدراسة التى تلقاها الطلبة فى تلك السنة من أولها إلى آخرها . ولم يقف نظام المراجعة عند ذلك ، بل كان الطالب إذا أتم دراسته ونَظَمَتْه جماعة اليسوعيين فى صفوف معلميها ، ابتدأ يراجع كل مادة تلقاها بتعليمها غيره من الطلبة الذين يختار للتدريس لهم . ومن طرائقهم أيضًا تقسيم كل فرقة الى طوائف صغيرة عدةُ كل منها عشرة ، يرأسهم واحد منهم ليختبرهم فى دروسهم ويراجعها لهم تحت إشراف معلم الفرقة ومراقبته ، ثم يتلو ذلك تقسيم ثُنائى ، فيوضع كل اثنين فى قَرَنٍ ويرسلان معًا الى ميدان التنافس ، ويكلف كلٌّ ملاحظة أخيه فى علمه وسلوكه ، فاذا أخطأ بيّنَ له خطأه وهداه طريق الصواب ، وبذلك كان كلٌّ يثير فى صاحبه النشاط ويستحثه إلى العمل الصالح . وفوق ذلك كانوا فى كثير من الأحيان يقسمون الفرقة الواحدة قسمين ينازل أحدهما الآخر فى حرب علمية ، ويتنافسان فى التحصيل وفهم الدروس . ومن أساليبهم فى هذا النزال أن يضع أحد الفريقين للآخر أسئلة يطلب إليه الإجابة

عنها ، وقد يضع أستاذ الفرقة نفسه الأسئلة ويقوم كل فريق ببيان الخطل الذى يقع فى إجابة منافسه .

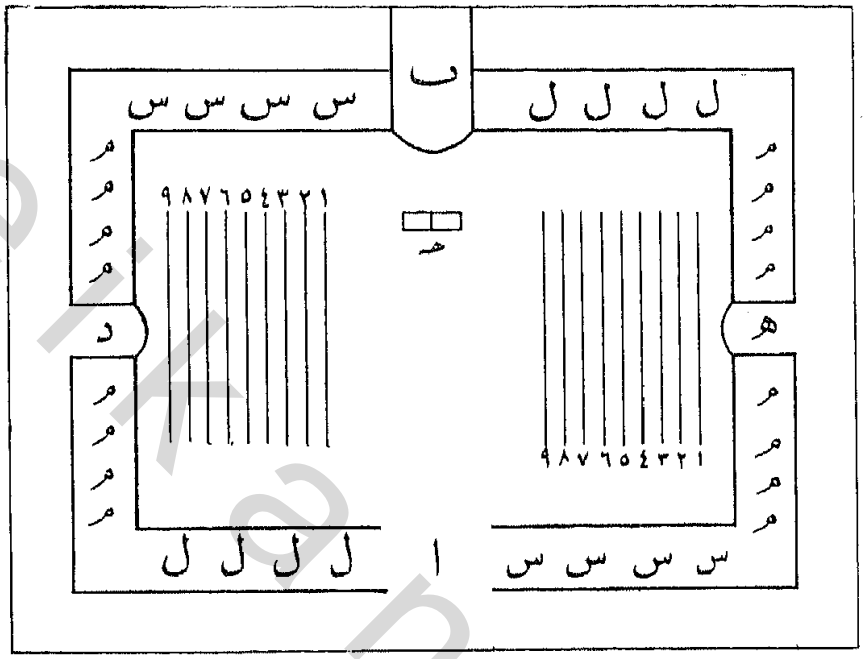

رسم إحدى حجرات التدريس فى المدارس اليسوعية فى القرن السابع عشر

(ب) تمثل المعلم (هـ) العرفاء (د) ، (ه) ، (م) ، (ل) تمثل الطلبة المشرفين . الخطوط المرقومة تمثل صفوف الطلبة . وحينما يدعى طالب لالقاء درسه أو للاجابة عن سؤال ، يقوم منافسه فى الغرفة من المكان المقابل لمكان الاول فيصلح له خطأه ويجيب عما يعجز عنه .

أضف الى كل ذلك المجامع العلمية المدرسية ، فانها كانت وسيلة من أحسن وسائل التنافس وأرقاها بين مهرة الطلبة وأذكيائهم فى الفرق العالية لاغير وقد شملت موضوعات المنافسة فيهـا الترجمة والإنشاء والخطابة والآداب القديمة والتاريخ وغيرها . ولم يكن الانتساب إلى هذه المجامع جبرياً بل كان بمحض الرغبة والاختيار . يقدم من يشاء من طلبة الفرق العالية اسمه ، فإذا زكّاه أعضاء المجمع وشهدوا له بالكفاية والاقتدار أُجيب الى ملتمسه ، فنال شرف الانتماء الى المجمع ، وأصبح عضواً من أعضائه ؛ وكان ذلك يعد من شواهد فضل الطالب ودلائل رجحانه ونبله .

كان إتقان العمل أهم مبادئهم ، وأقوى دعائم التعليم فى مدارسهم ، ومن مأثورهم فى ذلك « قليل متقن خير من كثير غير متقن » ، ولذا رأوا الاقتصار على مادة قليلة يتقنها

المعلم إتقاناً ينير شبهتها و يفتح مغلقها ، فلا يترك كلمة واحدة من غير أن تنال حظها من الشرح والإيضاح ، حتى لقد أوجبوا على المدرس أن يقتصر على ثلاثة سطور أو أربعة من كتب الآداب اللاتينية يدرسها فى اليوم لتلاميذ الفرق الأولى ، ليستطيع إتقانها بإجادة الشرح وكثرة المراجعة . و بدهى أن طريقتهم هذه جعلت التعليم فى مدارسهم محدوداً ضيق المناهج ، اذا وُوزن بالتعليم فى المدارس المعاصرة ، ولكنه كان متقناً شديد التأثير .

معابرها وانتظام قواها

يجدر بنا بعد هـذا البيان الذى أطرينا به نظام هذه المدارس ، وذكرنا فيه فضل ما اهتدت اليه من أساليب التعليم ومناهجه ، أن نبين للقارئ كيف انتكثت قواها ووهى بنيانها فتضاءل ذلك المجد الذى كان لها أيام شبابها وقوتها .

إن أكبر مثلبة فى هذه المدارس تُرى فى قوانينها التى قضت بسلب الأفراد حريتهم و إرادتهم ، فإنها أوجبت أن يخضع الفرد خضوعاً كاملاً للجماعة التى ينتمى إليها ، وأن تخضع تلك للكنيسة ، فأصبح الفرد بذلك مسلوب الحرية لا رأى له أمام الجماعة ، وذلك غرض من أغراضهم جرت أساليب التربية عندهم على تحقيقه . ومن ذلك نرى أن اليسوعيين فى مبادئهم وأعمالهم قد خالفوا روح النهضة التي سادت البلاد فى تلك الأزمان . نعم كانت طرائقهم فى التعليم سديدة متقنة ، ولكنها على الرغم من ذلك قد قتلت فى المتعلمين روح الابتداع والابتكار ، وعاقت فيهم نمو الإرادة والعزيمة ، وحالت بينهم و بين الحرية فى الرأى والفكر .

علا صيت هذه المدارس وكان لها رونق و بهاء أيام أن كانت التربية جارية على سنتها المألوفة فى ذلك الحين ، وأيام أن كان الناس قانعين بمقاصدها راضين عن مناهجها ؛ ولكن لما أتى القرن الثامن عشر وأحس الناس فيه نقص أغراضها ، ورأوا أن أساليبها ومناهجها لا تلائم روح العصر ، ذهبت بهجة هذه المدارس وتضاءل ما كان لها من الذكر الرفيع والشهرة الذائعة .

طائفة بورت رويال

بورت رويال اسم دَيْر للراهبات فى فرنسا ، يبعد عن مدينة فرساى بنحو ثمانية أميال . وقد أسس فى القرن الثالث عشر ، ولكنهُ لم ينل شهرته الفائقة إلاَّ فى القرن السابع عشر حين صار مهبطًا لطائفة من رجال الدين هجروا دنياهم وحبسوا نفوسهم على العلم والعبادة ، فألفوا كثيراً من كتب العلم والأدب ، وأنشئوا عدداً قليلاً من المدارس كان لها أثر جميل فى التربيـة والتعليم . وقد جروا فى حياتهم على مبادئ خاصة سنها لهم زعيمهم القديس « كيران » (١٥٨١ – ١٦٤٣) . وقد أصبحت هذه الطائفة تنسب إلى ذلك الدير الذى كانت تسكنه .

مدارس هذه الطائفة

لم تنل هذه المدارس تلك الشهرة العظيمة من أجل كثرتها أو طول مدتها ، فإنها كانت قليلة العدد قصيرة الأجل لم تعمر أكثر من أربع وعشرين سنة (١٦٣٧-١٦٦١) ، بل لأنها بأغراضها الحديثة من التربية وأساليبها السديدة ظهرت على مدارس اليسوعيين ذات المكانة الرفيعة فى ذلك الوقت ، وأصبح أثرها فى التعليم أعظم وأنبل .

أسس هذه المدارس زعيم الجماعة القديس « كيران » ، وزاول التعليم فيها عدد كبير من أتباعه الذين كان لهم الفضل العظيم على التربية بما كتبوه من المقالات السديدة التى انتشرت فى كثير من الأقطار . ومن أشهر تلاميذ هذه الجماعة « لافُنْتين » (١٦٢١ – ١٦٩٥) و « بَسْكال » (١٦٢٣ – ١٦٦٢)

وقد سمت هذه الطائفة مدارسها بالمدارس الصغيرة ، لأنها قصرتها على عدد قليل من الأطفال ليستطيع المعلم بعشرته إياهم أن يؤثر فيهم ويكوّنهم التكوين الذى يريد . وقد امتازت هذه المدارس بالعناية الفردية التى كان المعلم يبذلها لكل تلميذ من تلاميذه على حدة ، إذ كان من طرائقهم فى التربية ألا يترك الطفل ونفسه لحظة واحدة ، وإنما يجب أن يكون تحت مراقبة معلمه وإشرافه فى كل لحظة من لحظات طفولته . وقد

انتهجوا هذا المسلك لأنهم كانوا يرون أن التربية الصحيحة هى التى ترمى الى تقوية جانبى الدين والخلق فى الطفل ، وتعمل على تكوين إرادته بوضعه فى بيئة صالحة مؤثرة . وقد كان حب الطفل أساس التعليم عندهم وأكبر باعث لهم على العمل . وقد أوضحوا ذلك فيما كتبوه من مقالات التربية كما ظهر بأكمل معانيه فى أعمالهم .

ومن أصول التعليم عندهم ألا يدرس الطفل إلا ما يستطيع فهمه ، ولذلك أوجبوا أن يبتدئ الطفل عمله بدراسة اللغة الوطنية بدلاً من البداءة بدراسة اللغة اللاتينية ، على خلاف ما جرت به العادة منذ ابتداء النهضة الأوربية وسرت عليه مدارس البروتستنتيين واليسوعيين ، فإذا أتقن الطفل دراسة لغته ابتدأ اللغة اللاتينية . وطريقهم فى تعليم هذه اللغة أن يقللوا ما استطاعوا من تلقين قواعدها ، وأن يستعينوا على دراستها بترجمة التراكيب والأساليب إلى لغتهم الوطنية ، ثم يتبعوا ذلك بمطالعة مختارات واسعة فى آدابها . وقد أدخلوا فى منهاج الدراسة تهذيب الأخلاق والتاريخ والرياضة على شرط أن تكون الدراسة فى هذه الموضوعات غير مطولة . وكانوا يرون أن نجاح التعليم موقوف على إتقان بدايته . وأهم وسائل هذا الإتقان أن تتجه عناية المربى إلى مادة الدروس أكثر مما تتجه الى أساليبها ولغتها ، وأن يعتمد على فهم التلاميذ أكثر مما يعتمد على حفظهم ، وأن يستخدم فى التعليم حواس الأطفال استخداماً أكثر مما كان متبعاً فى المدارس المعاصرة .